ذبابة كوزنبرغ وذبان الجاحظ

بقلم: ارينا داوود - مراجعة: د حسام الخطيب

مقارنة بين أقصوصة « الذبابة » بقلم « كورت كوزنبرغ »
وبعض النصوص من كتاب « الحيوان » للجاحظ

- ١ -

عرف تاريخ الأدب فن النثر منذ العصور القديمة غير أن القصة الفنية ، ولا سيما أختها الصغيرة « الأقصوصة » ، نشأت في عصرنا الحديث وانتشرت بانتشار الصحافة لحاجتها إلى القصص القصيرة المشوِّقة التي تُمتِع القارىء بأسلوبها الأدبي وما فيها من مغزى فجائي . واليوم لا حصرَ لعدد المؤلفين في هذا اللون الأدبي والذين قد لاينالوا شهرة عالمية على الرغم من جودة أدبهم ومعالجتهم لموضوعات تتجاوز إطار الأدب المحلي إلى الأدب العالمي .

ومن هؤلاء الأدباء الكاتب الألماني « كُورت كوزنبرغ » الذي عُني

بالأقصوصة وقد تميزت مؤلفاته بروح الفكاهة والسخرية اللطيفة . ولد « كورت كوزنبرغ » في مدينة « كوتبورغ » في ألمانيا عام ١٩٠٤ م وقد توفي حديثاً . أما طفولته فقد أمضاها في « ليشبونة » عاصمة البرتغال . أتم دراساته الجامعية في قسم تاريخ الفنون ثم عمل محرراً في الصحافة ، وفي الوقت نفسه انصرف إلى الكتابة الأدبية .[1] ومن جملة قصصه الفنية أقصوصة بعنوان « الذبابة » . وقد أثارت اهتمامي ليس لقيمتها الفنية فحسب وإنما لأن موضوعها ذكرني ببعض النصوص في كتاب « الحيوان » الذي ألفه « الجاحظ » قبل ما يزيد على ألف سنة . وقد تجاوزت شهرة الجاحظ الذي يعتبر علماً من أعلام الأدب العربي حدود المنطقة العربية فترجمت مؤلفاته إلى لغات أجنبية منها الفرنسية والألمانية . قال « عبد السلام هارون » عن مكانة الجاحظ : « كان الجاحظ زعيماً للبيان العربي وهو كذلك أحد زعماء المكتبة العربية »)[2] وقد حافظ الجاحظ على مكانته العالية إلى عهدنا الحاضر فتنبه له المستشرقون الذين قارنوه ببعض كبار الأدباء الأوربيين .

قال عنه « شارل بلاّ » مؤلف كتاب « **الجاحظ في البصرة** » : « إذا كان لابدّ من مقارنة الجاحظ بأحد الكتاب الغربيين فيجب التنقيب عنه بين الكتاب الإنسيين Humanisks وأنه إذا صح إطلاق حقيقة الإنسية على كاتب عربي فإن الجاحظ هو أكثر الكتاب العرب استحقاقاً لها ، على أن إطلاق هذه الحقيقة عليه ليس ضرورياً لدعم مجده »[3] . وكتاب « الحيوان » أحد الكتب الكبيرة التي ألفها الجاحظ جامعاً لعلوم عصره وآدابه . وكان هدفه من دراسته للطبيعة أن يظهر بنتائجها المدعومة بالبراهين العقلية قدرة الله وحكمته وحسن تدبيره . كما أنه كان يرمي من وراء ذلك إلى الدفاع عن عقيدة المعتزلة . وتناول الجاحظ في أبحاثه العلمية شتى أنواع الحيوان حتى الحشرات الصغيرة كالبعوضة

---

(١) انظر : « **الدوارة** » بامبرغ ، ألمانيا ، ١٩٦٢ ، ص ١٧٣

(٢) الحيوان ، تقديم عبد السلام هارون ، بيروت ١ / ص ٣

(٣) الجاحظ في البصرة ، شارل بلا ، ترجمة كيلاني ، ص ٤ - ٦

والـذبـابـة فوصفهـا وصفـاً دقيقاً ثم عبر عن إعجابه بتلك المخلوقات الصغيرة وعجائبها الكبيرة .

وهـاهـوذا الأديب الألمـاني الـذي عاش بعد الجاحظ بألف سنة وأكثر قد تنـاول في أقصـوصتـه « الـذبـابـة » تلك الحشـرة التي نالت من إهتمام الجاحظ مانالته . وكأني وأنا أقرأ أقصوصة « الذبابة » قد جاءني صدى قول الجاحظ :

« أوصيـك أيّهـا المتفهِّم ، وأيهـا المستمع المنصت المصيخ ، ألا تَحقِر شيئاً أبداً لصغر جثته ، ولا تستصغر قدرة لقلة ثمنٍ »[٤] .

وفيما يلي ترجمة الأقصوصة الألمانية حتى نتبين مدى التشابه ومدى الخلاف بين إنتاج الأديبين .

- ٢ -

ترجمة أقصوصة الذبابة

ليست كل غرفة صالحة للتأمل والتفكير ، لذا كان على صاحب الغرف العـديـدة أن يكتشف الغرفة الأكثر إيجابية في تأثيرها على مجرى أفكاره . فكلما أراد السلطـان « طوبـو الـدين » أن يفكر في موضوع ما بهدوء كان يدخل الغرفة الخضـراء ويمتـد على أريكـة من أرائكها المريحة ثم يغمض عينية ؛ وفي أغلب الأحيان كانت تأتيه الآراء الجيدة طالما توفر السكون التام في الغرفة وخلت قبل كل شيء من طنين الذبان ، هذا الصوت الذي كان يكرهه السلطان كثيراً من دون جميع الأصوات الأخرى .

وكـان من واجبـات العبـد « بونتوس » منع الذبان من الدخول إلى تلك

---

(٤) الحيوان ، الجاحظ ، ٣ ص ٢٩٨ .

الغـرفـة الخضـراء . ولعـل قائـلا يقـول : « يالهـا من وظيفـة مريحـة ومنصب للكسالى ، لن تجد مثله إلاّ في بلاد المشرق » ! بيد أن هذا الرأي لم يكن منصفاً للعبـد « بونتـوس » لأنـه أولاً لم يختر هذه الـوظيفة اختياراً بل فرضها عليه القدر بعد أن كان في وطنه عمّار حاذقاً مشهوراً ، وثانياً لأن إبعاد الذبان عن الغرف في البلاد الشرقية ليس بالعمل السهل إطلاقاً .

في ذلـك اليـوم الـذي تتحـدث عنه هذه الصفحات ، كان السلطان في الغـرفـة الخضـراء مسترخياً على إحدى الأرائك مستغرقاً في التأمل والتفكير ، وكـان العبـد « بونتـوس » يقف عنـد الباب والمذبة في يده ، وبينما هوعلى هذه الحـال إذ اعـتراه شعـور غامض بالقلق . والحق يقـال إنه لم يكن على يقين من وجـود الـذبـابـة غير أنه كان يحس أو يتوجس بأنها كانت تختبىء في زاوية ما من زوايـا الغـرفـة ولم يكن يملك سوى الرجاء بألا تظهر للعيان . لكن عبثاً ، لقد التقطت أذنـه صوت الـذبـابـة ثم رآهـا بعينـه وهي تنطلق في الهـواء مترنحة في منحنيات جنونية بطنين كطنين الزنبور .

عندئذٍ فتح السلطان عينيه وقال : « أيها المهمِل ، أهكذا تقوم بعملك ! كيف يمكنني التفكـير والغـرفـة تكتـظ ذبـانـاً » ؟ « العفـويا سيـدي » أجـابه « بونتوس » « إنها ذبابة واحدة فقط ، سأقتنصها بثوان » . أما نظرات السلطان فقد اتجهت نحو المنضدة المصنوعة من اليشب (نوع من الخشب النفيس) التي تعلوهـا أشيـاء نفيسـة من بينهـا ساعـة رمليـة ذهبيـة ووقع بصر السلطان عليها فقـال : « إقلب السـاعـة ، سأعطيـك فرصـة لقتل الذبابة خلال مدة انسياب الرمل ، وإذا فشلت في قتلها فستموت . »

كانت المهلة قصـيرة إذ أن هذه الآلـة الـذهبيـة استخـدمها السلطان في تحديـد الـوقت لخطـابـاتـه الموجهة إلى وزرائه . ولم يتجاوز انسياب الرمل من الكأس العليـا إلى الكأس السفلى أربـع دقائق . قلب « بونتوس » الساعة بيد مرتجفة ثم شرع في صيد لم تكن بدايته لتبشر بنهاية سعيدة . لقد فرشت الغرفة

الخضـراء بسبـع منـاضد طويلة عليها تحف فنية لا يحصى عددها بالإضافة إ المصـابيـح وأنـواع الأسلحـة والتـماثيل المحفورة التي زُينت بها الجدران ؛ وك مخابىء مأمونة للذبابة ، وكان على « بونتوس » المتبصر شأن العقاب ألا يك إحداها .

اصطـدمت الـذبـابـة بزجـاج النـافـذة مرةً أولى ثم ثانيـة فثـالثـة فتقا « بونتوس » نحوها ببطء حين اندفعت مرة أخرى نحو النافذة ووجه إليها ضر لم تصبهـا بل كانت النتيجـة أنهـا أخذت ترقص وتتقلب في الهواء بذبذبة غاض مجنونة . وعلى الرغم من أنها لم تكن إلا مخلوقاً صغيراً جداً لا تملك القدرة عل التفكير فقد كانت تحس بأن هناك من هدد حياتها . ومما زاد الأمر سوءاً أنه كا وقت العصـر ، أي السـاعـة التي تسبق غروب الشمس والتي هي - فيما يظهر السـاعـة المفضلة عنـد كل ذبـان العـالم ، حتى تلك التي لا تحس بخطـر عل حيـاتهـا ، لتقوم برقصاتها الجنونية . وكان أقرب إلى المستحيل إصابة الذبابة ف الهواء إذ اندفعت بسرعة البرق كما أنها كانت تغير اتجاهاتها باستمرار . لم يرف « بونتوس » عينيه عنها وقد بدأ يصلي بلا صوت لعل دعاءه يُستجاب فتستقر ف

مكـان . ولم يعـد يهمـه إن كسّر إحدى النفائس بل كل ما كان يعنيه أن يصيب بمـذبتـه تلك الحشرة اللعينة مصدر عذابه . وبالفعل توقفت الذبابة أخيراً عر الطـيران ولكن فقـط لكي تبتعد عن منطقة الخطر فكأن لها نصيباً من العقل إذ اختارت كتف السلطان اليمنى لتستقر عليها .

نظر « بونتوس » إلى الساعة الرملية ونبهه مبلغ الرمل المنساب بأن نصف المهلة قد انقضى . ماذا يفعـل ؟ ! مستحيـل أن يضرب السلطان بالمذبة ، ولو تجرأ على ذلـك لكـان المـوت مصـيره الحتمي بعد المعاناة من ألوان التعذيب . وإذا كان لا بد من المـوت فالأفضـل أن يمـوت موتـاً سريعاً بحد السيف . إلى الآن ما زال السلطـان ممتداً على الأريكة وعيناه مغمضتان متظاهراً بالاستغراق في التأمل شارداً في أحلام اليقظة .

أما في الحقيقة فكان يتلذذ بتزايد يأس عبده وكان يسترق السمع إلى وقع أقدامه محاولاً معرفة الموقف الذي وصل إليه هذا الصيد المثير للذبابة . وحينما لم يعد يسمع تحركات « بونتوس » ولا طنين الذبابة ساوره الغضب ، وتساءل ماذا لو نجح هذا الأبله فنجا بنفسه في اللحظة الأخيرة . لم يكن السلطان عارفاً أن الذبابة كانت جالسة على كتفه تتمتع بحمايته الخاصة .

تسمّر « بونتوس » في مكانه بعد أن كاد يفارقه كل أمل ، ولم ينظر إلى الساعة الرملية كيلا يشعر بدنو وقت تنفيذ حكم الإعدام فيه . وتراءت له بنايات البلدية العظيمة والمساكن والعمارات التجارية ومخازن الغلال بل قل مدينة كاملة كان من الممكن أن يبنيها بنفسه لولا القدر الذي حال دون ذلك بسبب ذبابة واحدة . وانقطع تيار أحلامه عندما تركت الذبابة كتف السلطان اليمنى لتتابع طيرانها . وقد مرّت بالقرب من « بونتوس » المتربص لها ومرت بالمذبة ومنها توجهت نحو الأريكة التي عبرتها زحفاً ثم ارتفعت مرة أخرى في الهواء قبل أن تنزل أخيراً لتستريح على ركبة السلطان اليمنى . وعندئذ غضب « بونتوس » غضباً شديداً وقال لنفسه : « إذا كان لا بد لي من الموت فليمت

السلطان معي ؛ إنه ليس بالقوة الشديدة فلن يصعب علي خنقه وبعد ذلك سأشنق نفسي . ولكن في الحال جاءته فكرة أخرى : « حتماً لن يكشفوا فعلتي على الفور ، سأهرب ولعل الحظ السعيد حليفي هذه المرة بعد الذي لحقني من المتاعب » .

واقترب من السلطان بهدوء ومد يده نحوه . لم ترتجف يداه ارتجافهما حين كان يَقلِب الساعة الرملية بل ارتفعتا دونما اضطراب . إن الأمر الوحيد الذي كان يهمه في هذه اللحظة أن يطوق عنق السلطان بسرعة وبشدة حتى لا تفلت منه صرخة . في هذه اللحظة تركت الذبابة مقعدها وخطت نصف دائرة في الهواء ثم عادت لتهبط على جبين السلطان . ووجه السلطان ضربة مصيبة إليها فسقطت على الأريكة .

وفي الوقت نفسه فتح السلطان عينيه ورأى يدي العبد بالقرب من عنقه فأدرك نيته. وسأله : « أتريد قتلي ؟ » . وأجابه بونتوس بهزة من رأسه فقال : « نعم يا سيدي ، هذا ما أردته لأنني كنت سأموت من أجل ذبابة » . ولما أدرك السلطان مدى قربه من الموت ساوره الفزع وخفق قلبه وشحب وجهه . « من أجل ذبابة » يا لها من فكرة لم يفطن لها عقله . « من أجل ذبابة كدت أصبح ضحية اغتيال » . ولبعض الوقت لم ينبس بكلمة كأنه فاقد اللسان . ثم قال : « لننسَ أنك فكرت في قتلي . والحق يقال بأننا لم نحصل على حكم واضح في شأنك لعدم انقضاء المهلة حين ضربت الذبابة . أليس كذلك ؟ » قال بونتوس : « لا أعرف ، لأنني في الأخير كنت أحاول ألا أنظر إلى الساعة الرملية » . فأردف السلطان قائلاً : « علينا أن نتخلص من القضية ، لذا اقلب الساعة مرة ثانية ، ثم اركض بأقصى سرعة ممكنة إلى أبعد الأبعاد الممكنة لتنجو بحياتك ، فبعد انقضاء المهلة التي تمنحها إياك هذه الساعة سوف أسلط عليك الحراس والصيادين مع كلابهم . وإذا قبضوا عليك فستموت شنقاً » .

نفذ بونتوس ما أُمر به وقلب الساعة الرملية ، ثم اندفع من الغرفة الخضراء اندفاع السهم ، وهبط من السلالم ، واجتاز الساحات والعديد من الأبواب وفي غمضة العين بلعته أزقة المدينة الضيقة . وظنه كل من مرّ بهم أنه رسولُ السلطان الخاص في مهمة خطيرة .

وأما في الغرفة الخضراء فقد نزلت آخر حبة من الرمل من الكأس العليا إلى الكأس السفلى ، وقد كان السلطان على وشك أن يمد يده إلى الجرس طلباً للحراس ، وفي تلك اللحظة رأى أمراً لم يصدقه : إن الذبابة التي كان يظنها ميتة نتيجة الضربة قد أفاقت من غيبوبتها وبدأت تتحرك . ولما عادت تطير في الهواء وكأن شيئاً لم يحصل لها اندفعت تجاه السلطان فتراجع خطوة كأنه في خطر . وفكر وهو يشعر بخوف : (إنه نذير بأن لا أحرك الجرس) .

وهكـذا لم يأمـر السلطـان بمطـاردة العبـد بونتـوس الـذي نجـا عنـدئذ بحياته ، فوصل إلى وطنه حيث استعاد نشاطه فأصبح من جديد عماراً مبدعاً .

- ٣ -

موضـوع هذه الأقصـوصـة ذبابة صغيرة لعبت دوراً هاماً في حياة كل من العبد والسلطان فكادت تكون سبب موت أحدهما . لقد أراد الكاتب أن يحذر الإنسـان من الإستهـانة بالمخلوقات الصغيرة . إنها الفكرة بعينها التي عبر عنها الجاحظ والتي افتتح بها باب القول في أجناس الذبان فقال :

« أوصيك أيها القارىء المتفهِّم وأيها المستمع المنصت المصيخ ، ألا تَحقِرَ شيئاً أبداً لصغر جثته ، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنٍ » .

واستطـاع « كوزنـبر غ » أن يصور لنا بريشة الفنان هذه الحشرة بحركاتها وأصـواتهـا وتصـرفاتها تصويراً حياً فأظهر من خلال هذا الوصف قدراتها الفائقة قدرات الإنسـان . لقـد عجـز العبـد بونتـوس المسلح بعقله ومـذبته أن يقضي عليهـا . وحـين نعـود إلى كتاب « الحيوان » نقرأ فيه نصاً بعنوان « ما يعجز عنه الإنسان مما قدر عليه الحيوان » ، ورد فيه الوصف التالي :

« وكيف أعطى كثـيراً منهـا من الحس اللطيف ، والصنعة البديعة ، من غير تأديب وتثقيف . . . فبلغت بعفـوهـا وبمقـدار فطـرتهـا ، من البـديهـة والارتجـال ، ومن الإبتـداء والإقتضاب ، مالا يقدر عليه حذاق رجال الرأي ، وفـلاسفـةُ علماء البشـر ، بيـدٍ ولا آلـة . . » (فأضيف مكملاً قول الجاحظ : « ولا مذبـة ») . ويتـابـع الجـاحظ قوله : « فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلم ما يمتنع على الإنسان وإن تعلّم[٥] ، فصار لا يحاول ؛ إذ لا يؤمِّل اللحاق بها » .

---

(٥) الحيوان ، الجاحظ ، ١ / ص ٣٥

ألم نسمع في الأقصوصة : « وعلى الرغم من أنها لم تكن سوى مخلوق صغير جداً لا يملك القدرة على التفكير فقد كانت تحس بأن هناك من هدد حياتها » ، ثم في المقطع التالي : « فكأن لها نصيباً من العقل اختارت كتف السلطان . . . » وكتب أيضاً واصفاً عجز الإنسان عن اللحاق بها : « وكان أقرب إلى المستحيل إصابة الذبابة في الهواء . . . » . وبالفعل لم يصبها العبد بونتوس . وموقف عجز الإنسان في وجه الحشرة الصغيرة ، هذا نجده مرة أخرى في قصة قصيرة أوردها الجاحظ في باب الذبان . وتدور هذه القصة حول قاضٍ عاش في البصرة وقد عرف بأنه أزمت الناس إلا أنه في يوم من الأيام سقط على أنفه ذباب . ولنستمع إلى الجاحظ بالذات في وصفه لهذا الموقف :

كان لنا بالبصرة قاضٍ . . . لم ير الناس حاكماً قطُّ ولا زميتاً ولا ركيناً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . . . وبينما هو كذلك ذات يومٍ وأصحابه حواليه . إذ سقط على أنفه ذبابٌ فأطال المكث ، ثم تحول إلى مؤق عينه ، فرام الصبرَ في سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه . . فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . . قال : أشهد أن الذباب ألحُ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ! فما أكثر مَنْ أعجبته نفسه فأراد الله عز وجل أن يعِّرفه من ضعفه وما كان عنه مستوراً ! وقد علمت أنّي عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ! »[٦] .

وتعبر أقصوصة « كوزنبرغ » عن فكرة أخرى كان يرمي إليها من خلال وصفه لعجائب هذه الحشرة الصغيرة ، وهي فكرة وجود قدرة عليا . وقد باشر بهذه الفكرة على لسان السلطان الذي قال عند رؤيته إعادة الحياة إلى جثة الذبابة : « إنه نذير ، ألا أحرك الجرس » . وقد كان هدف الجاحظ الأول ـ كما أشرت إليه في أول هذا البحث ـ من تأليف كتاب (الحيوان) كله إظهار قدرة الله وحكمته . ومن قول الجاحظ بهذا المعنى :

(٦) الحيوان ، الجاحظ ، ٣ / ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥

« ثم جعـل تعـالى وعـزّ هاتـين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين . . . ثم حث على التفكير والإعتبار »[٧] .

وكذلك لاحظت أفكاراً فرعية متشابهة ومنها إعادة الحياة إلى جثة الذبابة بعـد غيـاب ظواهـر الحيـاة عنها لمدة طويلة . جاء في الأقصوصة : « إن الذبابة التي كان يظنهـا ميتـة أفـاقت وبدأت تتحرك » . وكذلك وجدت للجاحظ نصاً بعنوان « حياة الذباب بعد موته » وفيه نقرأ ما يلي :

« وإذا ذبـانٌ كثـيرة قد تسـاقطن فيه من الليل فموَّتْنَ . . . فلا تلبث أن تراها قد تحركت ، ثم مشت ، ثم طارت . . . »[٨]

وأخيراً ذكر « كوزنبرغ » صعوبة إبعاد الذبان عن الغرف في بلاد المشرق وقـد خصص الجـاحـظ نصـين لمشكلة إخـراج الـذبـاب من البيت ؛ قال في أحدهما :

« فمن أراد إخـراجهـا من البيت فليس بينـه و أن يكون البيت على المقدار الأول من الضياء والكِن « الستر » بعدَ إخراجهـ . . »[٩]

وفي موضع آخر أشار الجاحظ إلى كثرة الذبان بقوله :

« وليس بعـد الهنـد أكثر ذباباً من واسط ، . . . رأيت الحائط وكأن عليه مِسحاً شديد السواد من كثرة ما عليه من الذبان »[١٠] .

- ٤ -

من غير أن نتعـرض لمسألـة التأثير يمكننا القول إن الكاتب الألماني استمد صوره

(٧) الحيوان ، الجاحظ ، ١ / ص ٣٧

(٨) الكتاب : الحيوان ، الجاحظ ، ٣ / ص ٣٤٩

(٩) الكتاب : الحيوان ، الجاحظ ، ٣ / ص ٣١٩

(١٠) الكتاب : الحيوان ، الجاحظ ، ٣ / ص ٣٢٤ / ٣٢٥

من البيئة الشرقية في أيامها الماضية . فالقصة حدثت في عهد السلطنة حيث تكوّن المجتمع من السادة والعبيد ، ونستنتج من اسم العبد بونتوس أنه كان من أصل روماني أو من البيزنطيين الذين كانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين . لقد استفاد الأديب الألماني من الحقائق التاريخية لإعطاء خلفية واقعية لقصته الخيالية . إذ أن أحداثها من خيال الكاتب وكذلك شخصياتها . وقد ظهر هذا التركيب بين الواقع التاريخي والخيال بشكل واضح في اسم السلطان « طوبو الدين » الذي ركبه الأديب من جزئين ، والجزء الأول « طوبو » لا معنى له (لعله مشتق من كلمة « طوبى » العربية بمعنى الخير أو كل ما هو مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء ، وعزّ بلا زوال ، وغنىً بلا فقر[11]) والجزء الثاني « الدين » المألوف في الأسماء العربية .

وتشتمل أقصوصة « كوزنبرغ » على كل مقومات القصة الفنية ، وقد عرض أحداثها بالسرد المباشر حيناً وعن طريق الحوار أو المونولوج النفسي حيناً آخر . ومن أهم العناصر الفنية التي تذرع بها الأديب عنصر التصوير فلا نستغرب إذا علمنا أنه كان مصوراً قبل أن جرّب نفسه في الكتابة والتأليف . ويتسم قلم « كوزنبرغ » في تصويره الأدبي بالدقة التي تكاد تكون دقة علمية تشبه دقة الجاحظ في أوصافه العلمية . وأما أسلوب الجاحظ في كتاب الحيوان فيتراوح بين العلمي والأدبي وهو تعليمي أكثر مما هو قصصي على الرغم من تضمنه بعض النصوص ذات الشكل القصصي كقصة « قاضي البصرة » . ويتميز أسلوب « كوزنبرغ » بروح الفكاهة والسخرية اللطيفة ويثير ضحكنا بوصف هزلي للمواقف الحرجة . وعلى العموم نلاحظ أن الميل إلى التفاؤ ل غالب على أسلوبه .

وأما الجاحظ فقد اشتهر بهذه الصفات بالذات في أسلوبه ففيه الفكاهة والسخرية اللطيفة كما أنه قد أظهر من التفاؤ ل ما أظهر حتى في أيام مرضه حين

---

(١١) المعجم الوسيط ، بيروت

ألف كتابه « الحيوان » .

نقاط التشابه ونقاط الخلاف

أ) **الأفكار** : نلاحظ لدى استعراض الأفكار التي سبقت الإشارة إليها تشابهاً مدهشاً بين الأقصوصة الألمانية وباب (الذبان) في كتاب (الحيوان) ، فاتفقا في فكرة عدم التحقير للمخلوقات الصغيرة وكذلك في الإعجاب بقدرات هذه المخلوقات التي يعجز عنها الإنسان ، ثم اتفقنا ثالثاً في الاستدلال بها على قدرة عليا . وبالإضافة إلى هذه الأفكار الرئيسة فقد عالج كلاهما فكرة إعادة الحياة إلى جثة الذباب بعد موته ، وأخيراً تعرضا لمشكلة إبعاد الذبان عن البيوت .

ب) **البيئة** : وكانت البيئة الجغرافية والاجتماعية التي جرت فيها أحداث الأقصوصة بيئة شرقية وهي بيئة غريبة عن أصل مؤلفها ، بخلاف الجاحظ الذي كان ابن هذه البيئة ومتأثراً بها بشكل طبيعي .

جـ) **الأسلوب** : ولاحظنا أيضاً في الأسلوبين نقاط تشابه عجيب مثل الفكاهة والسخرية والتفاؤل والدقة في الوصف .

أما من حيث الفروق فيجب الإشارة إلى أن الأديب الألماني جمع بين الأفكار كلها في قصة واحدة بينما نجدها عند الجاحظ متناثرة في عدة نصوص مع أنه يجمعها باب خاص في كتاب الحيوان .

والفرق الثاني أن « كوزنبرغ » عرض هذه الأفكار في قصة فنية جمعت بين الحقائق والخيال وكان الهدف منها إفهام القارىء حقيقة من حقائق الحياة بطريقة مسلية . أما الجاحظ فقد عرض هذه الأفكار بأسلوب تعليمي وكان من أهدافه شرح ظواهر الطبيعة وتفسيرها أي لم يقتصر على إبراز فلسفة من فلسفات الحياة فقط وإنما قدم عدة حقائق من نتائج أبحاثه العلمية . وفارق

البـواعث عنـد الأديبـين يفسـر لنـا الخلاف في أسلوبهما ، فالقصة الفنية تتطلب الأسلوب الأدبي الذي يحمل عواطف الأديب وخياله كما رأينا في الأقصوصة ، وأمـا نصـوص الجـاحـظ فتتضمن جملة من الحقائق العلمية التي تتطلب أسلوباً واضحاً يراعي الدقة ويبتعد عن الخيال .

والنتيجـة التي نخـرج بها من هذه المقـارنـة أن نقاط التشابه بين المؤلفين تغلب على نقـاط الخـلاف ولا سيـما في عنصـر الفكـر . لقد دعاني وجود البيئة الشـرقيـة في الأقصوصة إلى فرضية تأثر الأديب الألماني بالأدب العربي ثم قادني موضـوعهـا « الذبابة » إلى الجاحظ وكتابه « الحيوان » . وقد قوت التفصيلات التي وقعت عليهـا خلال هذا البحث اعتقـادي بأن الكـاتب الألماني اطلع على كتاب (الحيوان) وغيره من مؤلفات التراث العربي . ويؤيد هذا الافتراض دراسـة « كوزنـبرغ » الجـامعية فهو درس « تاريخ الفنون » كما أشرت إلى ذلك وقد تكون هذه الدراسات تشتمل على علم الاستشراق ، وعلم الآثار ودراسة العـادات الشعبيـة . وأعـود فأذكـر أن « كوزنـبرغ » قد أمضى طفـولتـه في الـبرتغـال ، ومن يتصفح مؤلفاته الكاملة يجد فيها أثراً واضحاً للبيئة الأندلسية وكـذلـك صوراً عديـدة مستمـدة من البيئـة الشرقية . له مثلاً أقصوصة بعنوان « فواكه المناطق الحارة » وفيها أدخلنا إلى « حديقة أندلسية » . وفي قصص أُخر تلوح عنـد الأفق المآذن وترتفع أشجار النخيل ، كما أن الكثير من المشاهد تدل على مدينـة من مدن الجنـوب . وفي بعض القصص وصف للأثـاث والأدوات واللبـاس في الشـرق مثل « الأصل الشرقي للرداء الحريري والشبشب ، وفرش الغرفة الشرقي أو النرجيلة وغيرها وغيرها ، وقرأتُ له أقصوصة جرت أحداثها في منطقـة من منـاطق ألمـانيـا وفـوجئت بجملة تكلم فيها بطل القصة عن عودة زوجتـه فقـال : « والحق يقـال إن المرأة الطيبة قد عادت في وقت غير مناسب إذ جاءت في الوقت نفسه فتاة عربية كنت أفضلها عليها بلا شك »[١٢] .

---

(١٢) المؤلفات الكاملة لـ « كورت كوزنبرغ » ، دار روفولت ، ألمانيا ، ١٩٦٩ ، ص ١٥٠ .

إنني أرجح بعد كل هذا أن أقصوصة « الذبابة » لِـ « كوزنبرغ » و« باب الـذبـان » في كتـاب الحيـوان « للجـاحـظ » مثال على التأثر والتأثير بين أدبين مختلفـين ومثـال على الثمار الناتجة عن إلقاء النظر عبر الحدود الجغرافية والزمانية لتنـاول الأفكـار الجـديـرة من زاوية أخرى أو بأسلوب مختلف ، لأن الحياة أخذ وعطـاء . إني أرجـح هذا الـرأي بانتقـال الأفكـار بين الشعـوب مع مراعاة قول الجـاحـظ « بأن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي . . . »[١٣]
لاشـك في أن هنـاك معـاني مشـتركـة بين جنس البشـر على اختـلاف البيئات الاجتـماعيـة . غير أن بناء المعرفة الإنسانية الشامخ إنما يقوم على الجهد العقلي ونقـل إنتـاجـه من جيل إلى جيل ومن شعب إلى شعب آخر . وبالإضافة إلى ماقـالـه الجـاحـظ عن « المعـاني المطروحة في الطريق » كان له النظرية التالية في إنشاء المعارف التي رأيتها ملائمة لاختتام هذا البحث . قال فيها :

« فحـاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى واحتيـاج الأقصى إلى معـرفـة الأدنى ، معـان متضمنـة وأسبـاب متصلةلله ، وحبـال منعقـدة ، وجعـل حاجـاتنـا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا »[١٤] .

---

(١٣) الكتاب : الحيوان ، الجاحظ ، ١ / ص ٤٠

(١٤) الكتاب : الحيوان ، الجاحظ ، ١ / ص ٤٣